فريدهيلم هوفمان* « Friedhelm Hoffmann » :

تقديم: رمضان مصباح الإدريسي « Ramdane Mesbah Idrissi », حاصل على الإجازة العليا في الشريعة « *Diplôme des hautes études en Chariah* » وإطار تربوي متقاعد من المملكة المغربية.

مؤرخ يرصد استهانة المستشرقين الألمان بمكانة اللغة العربية[1]

سلسلة المقالات « استهانة المستشرقين الألمان باللغة العربية وإهمالهم لها كلغة حديثة للعلم والتواصل: (1) خبرات وملاحظات شخصية تمهيدا » :

يقدم المستشرق والمؤرخ الألماني « فريدهيلم هوفمان » لقراء هسبريس, وللمهتمين بوضعية اللغة العربية في العالم, الحلقة الأولى من سلسلة مقالات تشتغل على وضعية هذه اللغة في الحقل الاستشراقي الألماني انطلاقا من تجاربه الشخصية في الوسط الجامعي الألماني, وبصفة خاصة جامعة « توبينغين » والمراكز البحثية التي يتعامل معها.

[1] صدرت هذه المقالة أصلا في الساعة 05:30 يوم الأربعاء 7 فبراير 2018 في موقع هسبريس الإخباري الإلكتروني المغربي على الرابطين التاليين « https://www.hespress.com/orbites/380395.html » و« https://www.hespress.com/orbites/380395.html?print » (النشرة الصالحة للطباعة).
يردّ قرّاء هسبريس على مقالتي بتعاليقهم في أسفل صفحة الرابط الأوّل.

حتى وإن تعثر أحيانا قلم هذا الباحث الألماني الفذ والغيور على لغة الضاد ـ كما يحدث مع الكثير من كتابنا ـ فأفكاره تعبر إلى القارئ بكل وضوح؛ وهذا ما شجعني على ألا أتصرف، تصحيحا, في المتن الأصلي.
وقلت أيضا بيني وبين نفسي: ليبق النص على أصله، لنعرف درجة تمكن الرجل من لغة شاقة التعلم حتى على الناطقين بها.

رمضان مصباح الإدريسي

****

أفتتح سلسلة مقالاتي في « استهانة المستشرقين الألمان باللغة العربية وإهمالهم لها كلغة حديثة للعلم والتواصل » بالحلقة الأولى وعنوانها الفرعي « خبرات وملاحظات شخصية تمهيداً ».
قد يستغرب القارئ العربي بمباشرتي هذا الموضوع المثير للجدل كوني باحثا ألمانيا وألماني الأصل. لا تعود أصول أسرتي إلى العالم العربي, وأنا الوحيد في أسرتي الذي يتقن العربية. فلماذا أنا ولماذا هذا الموضوع؟
قبل أن أدخل في صميم الموضوع, أريد أن أعتذر للقارئ العربي من أخطائي اللغوية وركاكة لساني كلّما أتعثّر في منزلقات لغة الضاد. إنّي أعرف جيداً أنّ عددا هائلا من العرب المهاجرين قد أقاموا مدّة تتجاوز السنين والعقود في مهجر الغرب حيث تعمّقوا في معرفة اللغات الغربية وإتقانها إلى حدّ لن أصل إليه بالنسبة للغة العربية في حياتي على كلّ الاحتمال.
لكنّ وضعي كباحث غربي كان ينوي تعلّم العربية الفصحى لا يساوي وضع المهاجرين العرب في الغرب, لإنّ المجتمع والمنظومة العلمية الغربية خصيصا لا يشجّعان على تعلّم لغات غير أوربّية إلّا لغات شرق آسيا أيْ لغات البلدان المتقدّمة جداً صناعياً وتكنولوجياً مثل الصين واليابان. الأمر الذي يشكّل موضوع سلسلة المقالات هذه بالضبط.
مع أنّي أحسّ بمحدودية إتقاني اللغة العربية، أتجرّأ على مباشرة هذا الموضوع الشائك والخطير علماً بأنّ هناك عائقةً بين العالمين الناطقين الأوّل بالعربية والثاني بالألمانية لا تبرير لها أبداً. بل هذا الحاجز مصطنع يسبّبه قطاع من قطاعات بيروقراطية الدول الغربية فاشل في وظائفه وداسّ ضدّ من لا ينتمي إليه. لنحدّدْ هذا القطاع فإنّه تمثّله بعض المخابرات الخارجية للدول الغربية مثل « دائرة الاستخبارات الاتحادية الألمانية » المسمّاة بالألمانية بـ *Bundesnachrichtendienst (BND)*[2].

[2] لمعلومات إضافية انظر مقالة « دائرة الاستخبارات الاتحادية الألمانية » الصادرة في موسوعة ويكيبيديا الإلكترونية

إنّي أتّهم عملاء وعميلات دائرة الاستخبارات الاتحادية الألمانية المتخفّين في داخل الهيئة الأكاديمية الاستشراقية كأساتذة وباحثين بأنّهم يطبّقون قاعدة سرّية تقول بعدم استخدام اللغة العربية الفعّال في إطار الدراسات الاستشراقية الألمانية، وبأنّ من يتجاوز هذه القاعدة ــ ولو عن الجهل بها ــ فيدسّون ضدّه ويخرجونه من حقل هذه الدراسات. هكذا علّمتني خبرتي الطويلة والمخيبة للأمل في الاستشراق الألماني المتخصّص للعالم العربي.

لنبتدئْ ببعض الأمثلة التي يمكننا الالتقاء بها والعثور عليها في وسائل الإعلام الدولية أو في المنظومة الاستشراقية كما أتذكّرها. إمّا قد عشتُها شخصياً وإما سمعت عنها أو قرأت عنها أو شاهدتها في التلفزيون. فمثلاً أتذكّر فيديو شاهدته على شبكة الإنترنت وكانت المتكلّمة باسم أكاديمية حلف الناتو الواقعة في روما تشرح فيه للمتفرّجين أسباب اندلاع ثورة الربيع العربي في تونس. فأخبرت المتفرّج الغربي بأنّ التوانسة يتقنون اللغة الفرنسية بجانب العربية لغتهم الأمّ وأنّ الفرنسية هي الوسيلة الممكّنة إيّاهم باستخدام الإنترنت. فلولا الفرنسية لما وسعهم استخدام الإنترنت, وربّما ما حدثت الثورة أصلاً.

لا أريد أن أتدخّل في مكانة اللغة الفرنسية في تونس ولا أنكر دورها الإيجابي فيها. لكن ما فاجأني في حديث المتكلّمة باسم أكاديمية حلف الناتو أنّها ربطت عواقب ونتائج الحداثة بالفرنسية فحسب, ونسيت وجود العربية كلّيا, كأنّ اللغة والخطّ العربيين لم يدخلا عصر الحاسوب والإنترنت بعد, وذلك في نهاية عام 2010 (!).

لنتابع الأمثلة ونختَر هذه المرّة معهد العلوم السياسية التابع لجامعة توبينغين,

« *Universität Tübingen*[3] » , جامعتي الأمّ, وبخاصّة فرعه المتخصّص في سياسة البلدان العربية, وسأطيل الكلام عنه في إحدى حلقات هذه السلسلة القادمة.

في يوم من الأيّام, وكان التاسع والعشرين من أكتوبر 2014 بالضبط، حضرتُ ندوة علمية في المعهد وكان الأستاذ الدكتور ديتريش يونغ « *Dietrich Jung*[4]» من جامعة جنوب الدانمارك « *University of Southern Denmark* » يلقي فيها محاضرة كان موضوعها « مفهوما "الذاتية" و"الحداثة" في الخطاب العامّ في مصر والأردنّ ».

على الرابط التالي « دائرة_الاستخبارات_الاتحادية_الألمانية /https://ar.wikipedia.org/wiki ».

[3] انظر النشرة الإنكليزية لموقع « *Eberhard Karls Universität Tübingen* » الخاصّ بجامعة توبينغين والصادر أساساً باللغة الألمانية على الرابط التالي « https://uni-tuebingen.de/en/ ».

[4] لمزيد من المعلومات عن سيرة الأستاذ ديتريش يونغ الأكاديمية انظر صفحة « *Dietrich Jung* » المكتوبة بالإنكليزية والواقعة على موقع جامعة جنوب الدانمارك على الرابط التالي :

« https://portal.findresearcher.sdu.dk/en/persons/jung ».

لقد كنت أتوقّع أنّه في صفته خبيراً في شؤون المجتمعات العربية يجيد اللغة العربية بطلاقة، فطرحتُ عليه سؤالا بسيطا بالعربية مع أنّه كان قد ألقى المحاضرة بالإنكليزية أصلا, علماً بأنّ موضوع محاضرته يخصّ الرأي العامّ المصري والأردنّي. لم أستطع أن أتصوّر أنّ باحثاً جدّيا يجرؤ على استطلاع الرأي العامّ في مجتمع من المجتمعات العربية ولا يتقن العربية, لكنّ الأستاذ يونغ شرع يغضب عليّ, حينما حاول أن يجيب على سؤالي لأنّه لم يفهمه أصلا.

في نهاية « جوابه » اتّهمني بأنّ من يطرح مثل هذه الأسئلة ـ يقصد بالعربية ـ لا يريد إلّا الضحك عليه. بكلمات أخرى, من يتجرّأ على التحدّث معه بالعربية, يتجاوز حدود الأدب الأكاديمي عند الباحثين المتخصّصين بدراسة البلدان العربية (هكذا !). ومع ذلك كنت أصرّ على إعادة طرح سؤالي ولو بالإنكليزية هذه المرّة. فمنعني الأستاذ المشرف على الندوة من إعادة السؤال. فأصررت مرّات عدّة, حتّى هدّدني ذلك الأستاذ بالطرد من القاعة, لو لم أتوقف عن إصراري. فقرّرت ألّا أعيد السؤال, بل خرجت من قاعة معهد العلوم السياسية, لأنّي سأكون بحاجة إلى مكتبة المعهد في المستقبل كذلك. خارجا من القاعة, اتّهمتُ الأساتذة الحاضرين بأنّ سلوكهم سلوك عملاء المخابرات وحسب. فردّ عليّ الأستاذ المشرف على الندوة بأنّه كان يجب عليّ ألّا أطرح سؤالا بالعربية.

يعود المثل الثالث إلى مركز الشرق الحديث « *Zentrum Moderner Orient*[5] » الواقع في العاصمة الألمانية برلين حيث كنت أعمل فيه موظّفا علميا ـ أيْ باحثا في الشؤون العربية ـ قبل سنين عدّة. ذات يوم صادفني أنّ أحد الأساتذة الزوّار الأمريكان ألقى محاضرة في قاعة المعهد وكان الحضور إجباريا على موظّفي المركز. فقرأتُ ـ تمهيدا لحضور المحاضرة ـ مقالة لذلك الأستاذ كانت قد نُشرت في مجلّة استشراقية إلكترونية, فاستغربت لأنّ معظم النصوص العربية المترجمة إلى الإنكليزية من قِبله كانت خاطئة وبعيدة جدّا عن معناها الأصلي بالعربية.

لو حاول ذلك الأستاذ أن يدخل امتحان اللغة العربية على مستوى البكالوريوس في أحد المعاهد الاستشراقية, لما نجح قطّ ولن ينجح أبداً. فكيف صار أستاذاً ؟ إنّه ادّعى من خلال « ترجماته » المزيّفة بأنّ « تنظيم القاعدة » يكسب جاذبيته عند الجمهور العربي من جذر « ق ع د » ومعناه اللغوي. في نهاية المطاف استأذنتُ مديرية المركز بأن أطيل الحديث في ترجماته الخاطئة وكيف توصّل منها إلى النتيجة الغريبة القائلة بأنّ جذر « ق ع د » يؤثّر على لاشعور العرب ويجرّهم إلى التفكير الإرهابي كما ادّعى هو. فأخبرتني نائبة المديرة بأنّ المديرة تفضّل ألّا أدخل في تفاصيل محاضرة الأستاذ الأمريكي هذه.

---

[5] انظر النشرة الإنكليزية لموقع « *Leibniz-Zentrum Moderner Orient* » على الرابط التالي « https://www.zmo.de/en ».

طبعاً عندي عشرات أو ربّما مئات من هذه الأمثلة عشتُها شخصياً أو قرأتها أو سمعتها أو سمعت عنها, وخلاصتها أنّ سواد المستشرقين, الألمان خاصّة، والغربيين عامّة, لا يبذلون جهدا يُذكر لتعلّم العربية, ولولا « الواسطة» الاستخبارية, لما ترقوا هُم في السلك الأكاديمي أبداً.

هذا ما سيكون موضوع السلسلة التي وعدت بها صديقي المغربي الأستاذ رمضان مصباح الإدريسي.

وأتمّنى أن يفيد موضوعي هذا القارئات والقرّاء العرب وأن يطرحوا عليّ أسئلتهم, كي ندخل في مناقشة مثمرة ومفيدة للجانبين.

ولكُنّ ولكم فائق تقديري واحترامي

* **فريدهيلم هوفمان** « **Friedhelm Hoffmann M.A.** », باحث ومؤرّخ ألماني من جامعة توبينغين في ألمانيا – حاصل على الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر ودراسات الحضارة الإسلامية من قبل الجامعة عينها.